

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠ - سُورَةُ الرَّؤْمِ

قال المهايي: سميت بها لاشتغال قصتها على معجزة تفيد للمؤمنين فرحا عظيما ، بعد طرح يسير . فتبطل شماتة أعدائهم . وتدل على أن عاقبة الأمر لهم . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهي مكية . وآياتها ستون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْم)

[٢] (غَلِبَتِ الرُّومُ)

[٣] (فِي آذَنِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)

[٤] (فِي بَضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)

[٥] (بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[٦] (وَعَدَّ اللَّهُ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« الْم غَلِبَتِ الرُّومُ * فِي آذَنِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ

سِنِينَ » اتفق المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على أن ملك فارس كان غزا بلاد الشام وفتح دمشق وبيت المقدس ، الأولى سنة ٦١٣ ، والثانية سنة ٦١٤ . أى قبل الهجرة النبوية بسبع سنين - فحدث أن بلغ الخبر مكة . ففرح المشركون وشتوا بالمسلمين ، وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب . ونحن وفارس وثنيون . وقد ظهر إخواننا على إخوانكم . ولنظهربن عليكم . فنزلت الآية ، فتليت على المشركين . فأحال وقوع ذلك بعضهم . وتراهن مع الصديق رضى الله عنه على مائة قلوص ، إن وقع مصداقها . فلم يمض من البضع - وهو ما بين الثلاث إلى التسع - سبع سنين إلا وقد نظم هرقل جنود الروم وغزاهم بلاد فارس سنة ٦٢١ . أى قبل الهجرة بسنة . فدوخوا ، واضطر ملكها للهرب . وعاد هرقل بالغنائم الوافرة . ولا ريب أن ذلك أعظم معجزات القرآن . أعنى إخباره عن غيب وقع مصداقه ،

واستبان للجاحدين من نوره إشراقه . وفي ضمنه، أن سائر غيوبه كذلك من ظهور الإسلام على الدين كله ، وزهوق الباطل ، وعلو الحق ، وجعل المستضعفين أمة ، وإبراهيم أرض عدوهم ، إلى غير ذلك . وما أطف ماقال الزبير الكلائي : رأيت غلبة فارس الروم . ثم رأيت غلبة الروم فارس . ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم . كل ذلك في خمس عشرة سنة - من أواخر غلبة فارس إلى أوائل غلبة المسلمين - والأرض (كما قال الزمخشري) أرض العرب . لأن الأرض اليهودية عند العرب أرضهم . والمعنى : غلبوا في أدنى أرض العرب أى أقربها منهم ، وهى أطراف الشام « لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل غلبة فارس على الروم « وَمِنْ بَعْدُ » أى من بعد غلبة الروم على فارس . ويقال : لله العلم والقدرة والمشيئة من قبل إبداء الخلق ، ومن بعد إفناء الخلق . والمعنى : أن كلا من كونهم مغلوبين أولاً ، وغالبين آخراً ، ليس إلا بأمره وقضائه ، وعلمه ومشيئته . كما قال تعالى ^(١) « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » « وَيَوْمَئِذٍ أَيُّ يَوْمٍ إِذْ يَغْلِبُ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ ، وَيَحِلُّ لِمَا وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ غَلْبَتِهِمْ » « يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ » أى تغلبه من له كتاب ، على من لا كتاب له . وغیظ من شمت بهم من كفار مكة . ويقال : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين « يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ » أى من عباده على عدوه « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى القاهر الغالب على أمره ، لا يعجزه من شاء نصره « الرَّحِيمُ » أى فى نصره وتغلبه من يشاء « وَعَدَّ اللَّهُ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى بحكمته تعالى ، فى كونه وأفعاله المحسمة ، الجارية على وفق العدل ، لجهلهم وعدم تفكرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٠] .

[٨] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ، مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ) « يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وهو ما يوافق شهواتهم وأهواءهم « وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ » أى التى هى المطلب الأعلى « هُمْ غَافِلُونَ » أى لا يُحْطِرُونَهَا بيبالهم . فهم جاهلون بها تاركون لعملها .

لطائف :

قال الزمخشريّ : قوله تعالى (يعلمون) بدل من قوله (لا يعلمون) وفي هذا الإبدال من النكتة ، أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه ، ليعلمك أنه لافرق بين عدم العلم الذى هو الجهل ، وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز الدنيا . وقوله (ظَهْرًا) يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً . فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها . وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة . انتهى . وناقش الكرخيّ في إبدال (يَعْلَمُونَ) قال : إن الصناعة لاتساعد عليه . لأن بدل فعل مثبت، من فعل منفى لا يصح . واستظهر قول الحوفيّ؛ أن (يَعْلَمُونَ) استثناء في المعنى . وأشار الناصر إلى جوابه بأن في تنكير (ظَهْرًا) تقليلاً لمعلومهم . وتقليله يقربه من النفي . فيطابق البديل منه .

أقول: التقليل هو الوحدة المشار لها بقول الزمخشريّ (وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً ، من جملة الطواهر) .
وأما قول أبي السعود : وتنكير (ظَهْرًا) للتحقير والتخسيس دون الوحدة كما توهم ، فغفلة عن مشاركتها للتعميل الذى به يطابق البديل المبدل منه . فافهم .

ثم أنكر عليهم قصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا ، مع الغفلة عن الآخرة بقوله (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ) أى يحدثوا التفكر في أنفسهم ، الفارغة من الفكر

والتفكير . فالجور ظرف للتفكير ، وذكره لزيادة التصوير . إذ الفكر لا يكون إلا في النفس . والتفكير لا متعلق له ، لتنزيهه منزلة اللازم . وجوز كون المحرور مفعول (يتفكروا) لأنه يتعدى بـ(في) أي : أو لم يتفكروا في أمر أنفسهم . فالمعنى حمهم على النظر في ذواتهم وما اشتملت عليه من بديع الصنع ، وقوله تعالى « مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » متعلق بقول أو علم ، يدل عليه السياق . أي : ألم يتفكروا فيقولوا أو فيعملوا . وقال السمين : (ما) نافية . وفي هذه الجملة وجهان - أحدهما - أنها مستأنفة لاتعلق لها بما قبلها . والثاني - أنها معلقة للتفكير . فيكون في محل نصب على إسقاط الخافض . انتهى . والباء في قوله (بِالْحَقِّ) للملابسة . أي ما خلقها باطلا ولا عبثا بغير حكمة بالغة ، ولا لتبقى خالدة . وإنما خلقها مقرونة بالحق ، مصحوبة بالحق «وَأَجَلٍ مُّسَمًّى» أي وبتقدير أجل مسمى ، لا بد لها من أن تنتهي إليه . وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب . ولذا عطف عليه قوله « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[١٠] (مُّمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا الشُّرَاقِبَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ)

[١١] (اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ مُّمَّ يَعِيدُهُ مُّمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[١٢] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ)

« أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ » أى قلبوها للزراعة واستخراج المعادن وغيرها ، مما كانوا أرقى فيه من أهل مكة « وَعَمَرُواهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا » أى بالأبنية المشيدة . والصناعات الفريدة ، ووفرة العدد والعدد ، وتنظيم الجيوش والترين بزخارف أعجبوا بها ، واستطالوا بأبهرتها . ففسدت ملكاتهم ، وطغت شهواتهم ، حتى اقتضت حكمته تعالى إنذارهم بأنبيائهم ، كما قال « وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى الآيات الواضحات على حقيقة ما يدعونهم إليه « فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ » أى فكذبوهم فأهلكهم . فما كان الله ليهلكهم من غير جرم منهم « وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا » أى عملوا السيئات « الشوأي » أى العقوبة التى هى أسوأ العقوبات فى الآخرة ، وهى جهنم . و(الشوأي) تأنيث (الأسوأ) ، وهو الأفتح . كما أن (الحسنى) تأنيث (الأحسن) ثم علل سوء عاقبتهم بقوله تعالى « أَنْ » أى لأن « كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ * اللَّهُ يُبَدِّلُ الْخَلْقَ » أى ينشئهم « ثُمَّ يُعِيدُهُمْ » أى بعد الموت بالبعث « ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى إلى موقف الحساب والجزاء « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ » أى يسكتون متحيرين يائسين . يقال (أبلس) إذا سكت وانقطعت حجته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ)

[١٤] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَدِ الَّذِينَ يَتَقَرَّ قُونَ)

[١٥] (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ)

[١٦] (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي

الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ)

[١٧] (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ)

[١٨] (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ)

«وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ» أى يجيرونهم من عذاب الله كما كانوا يزعمون «وَكَانُوا بِشُرُكِيهِمْ كَافِرِينَ» أى بالالهيمهم وشركتهم لله تعالى، حيث وقفوا على كنهه أمرهم «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُونَ بِتَفَرُّقُونَ» أى يتميز المؤمنون والكافرون في المحال والأحوال «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ» أى يسرون «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ» أى لا يغيثون عنه ولا يخفف عنهم «فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ» لما ذكر الوعد والوعيد ، تأثره بما هو وسيلة للفوز والنجاة ، من تنزيهه تعالى عما لا يليق به ، والثناء عليه بصفاته الجميلة ، وأداء حق العبودية . (والفاء) للتفريع فكأنه قيل : إذا صحّ واتضح عاقبة المطيعين والمعاصين ، فقولوا : نسبح سبحان الخ . والمعنى فسبحوه تسيحاً دائماً . و (سبحان) خبر فى معنى الأمر بتنزيه الله تعالى وحمده . أى الثناء عليه فى هذه الأوقات التى تظهر فيها قدرته ، وتتجدد فيها نعمته . وقوله تعالى (وَعَشِيًّا) معطوف على (حِينَ) وتقديمه على (حِينَ تُظْهِرُونَ) لمراعاة الفواصل . وقوله (وَلَهُ الْحَمْدُ) معترض بينهما . والمراد بثبوت حمده فيهما ، استحقاقه الحمد لمن له تمييز من أهلها . قال أبو السعود : والإخبار بثبوت الحمد له ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض ، فى معنى الأمر به على أبلغ وجه وآكده . وتوسطه بين أوقات التسبيح ، للاعتناء بشأنه ، والإشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما . كما بنى عنه قوله تعالى (١) (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) وقوله تعالى (٢) (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ أن الآية جامعة للصلوات الخمس : (تمسون) صلاة المغرب والعشاء . و(تصبحون)

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٨] .

صلاة الفجر . و(عشيا) صلاة العصر و(تظهرون) صلاة الظهر . فإن قيل : لم غير الأسلوب في (عشيا) ؟ أجب (كما قال أبو السعود) بأن تغير الأسلوب لما أنه لا يحى منه الفعل بمعنى الدخول في العشي . كالمساء والصبح والظهيرة . ولعل السرّ في ذلك أنه ليس من الأوقات التي تختلف فيها أحوال الناس ، وتتنير تغيرا ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج عما قبلها ، والدخول فيها ، كالأوقات المذكورة . فإن كلا منها وقت تتغير فيه الأحوال تغيرا ظاهرا . أما في المساء والصبح فظاهر . وأما في الظهيرة فلأنها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقبولة . كما مرّ في سورة النور . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ

[٢٠] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا آتَمَّ بِشَرِّهِ تَنَشَّرُونَ)

[٢١] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا

وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ » أى كالإنسان من النطفة، والطارئ من البيضة « وَيُخْرِجُ

« الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ » كالنطفة والبيضة من الحيوان « وَيُحْيِي الْأَرْضَ » أى بالنبات

« بَعْدَ مَوْتِهَا » أى يبسها « وَكَذَلِكَ » أى : ومثل ذلك الإخراج « نُخْرِجُكُمْ

من قبوركم .

وقال المهايغي : أى : بالصلاة عن موت القلب إلى حياته ، ومن حياة النفس إلى موتها .

ويحيي أرضها بنبات الهيئات الفاضلة ، بعد موتها بالهيئات الرديئة . وبالعكس بتركها . اهـ

وآثر هذا المعنى ، على بعده ، مراعاة لسياق الآية ، من طريق الإشارة « وَمِنْ آيَاتِهِ » أى

الباهرة الدالة على قدرته على البعث « أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ » أى يعنى أصلكم آدم عليه السلام . أو النطفة والمادة . أو على تقدير مضاف . أى ولا مناسبة بين التراب وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم « ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ » أى فى الأرض انتشاراً ملاً البسيطة وشمل الكرة . فأخذتم فى بناء المدائن والحصون ، والسفر فى أقطار الأقاليم ، وركوب متن البحار ، والدوران حول كرة الأرض ، وكسب الأموال وجمعها ، مع فكرة ودهاء، ومكر وعلم، واتساع فى أمور الدنيا والآخرة. كل بحسبه. فسبحان من خلقهم وسيّرهم، وصرّفهم فى فنون المعاش وفات بينهم فى العلوم والمعارف، والحسن والتبجح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » أى جنسكم « أَزْوَاجًا لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا » أى تأنسوا بها . فإن المجانسة من دواعى التضام والتعارف « وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » أى توادًا وتراحماً بمصمة الزواج ، بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أورشم « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى بدائع هذه الأفعال المتينة البنية على الحكم البالغة .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّغَاتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعٰلَمِينَ)

[٢٣] (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[٢٤] (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[۲۵] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذْ أَأْتَمْتُمْ تَنْخَرُجُونَ)

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ السِّنِينَ وَالْوَالِدَاتِ لَكُمْ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذْ أَأْتَمْتُمْ تَنْخَرُجُونَ » (۱) « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أي لاستراحة القوى ورد ما ففدته « وَأَبْتَعَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ » أي بالسعى في الأسباب، والأخذ في فضل الاكتساب « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ » أي سماع تفهم واستبصار « وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا » أي من الصاعقة « وَطَمَمًا » أي في الغيث والرحمة . أو لتخافوا من قهر سلطانه، وتطمعوا في عظيم إحسانه « وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ » أي بالنبات « بَعْدَ مَوْتِهَا » أي يبسها « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ » أي إرادته لقيامهما . قال أبو السعود: والتعبير عنها بالأمر، للدلالة على كمال القدرة، والغنى عن المبادئ والأسباب. وليس المراد بإقامتهما إنشاؤها. لأنه قد بين حاله بقوله تعالى (۲) « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس، كما قيل. فإن ذلك من تيات إنشائهما، وإن لم يصرح به، تعويلا على ما ذكر في غير موضع من قوله تعالى (۳) « خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » الآية . بل قيامهما واستمرارهما على ماها عليه، إلى أجلهما الذي نطق به قوله تعالى فيما قبل (۴) « مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى » وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدودة، متصلة بالبعث في الوجود، أخرت عنهن وجعلت متصلة به في الذكر أيضا، فقيل: « ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذْ أَأْتَمْتُمْ تَنْخَرُجُونَ » فإنه كلام مسوق للإخبار بوقوع البعث ووجوده، بعد انقضاء أجل قيامهما،

(۱) [۲۹ / العنكبوت / ۴۳] . (۲) [۳۰ / الروم / ۲۲] .

(۳) [۳۱ / لقمان / ۱۰] . (۴) [۳۰ / الروم / ۸] .

مترتب على تعداد آياته الدالة عليه ، غير منتظم في سلكها كما قيل . كأنه قيل : ومن آياته قيام السموات والأرض على هياتهما بأمره تعالى ، إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما . ثم إذا دعاكم ، أى بعد انقضاء الأجل من الأرض وأنتم في قبوركم ، دعوة واحدة ، بأن قال : أيها الموتى ! اخرجوا ، فاجأتهم الخروج منها ، وذلك قوله تعالى^(١) (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ) انتهى .

لطائف :

الأولى - الدعاء . إما على حقيقته ، أو الكلام تمثيل . شبه سرعة ترقب حصول ذلك ، على تعلق إرادته بلا توقف ، واحتياج إلى تحشم عمل ، بسرعة ترقب إجابة الداعي المطاع على دعائه . أو هو ممكنة وتخيلية ، بتشبيه الموتى بقوم يريدون الذهاب إلى محل ملك عظيم يهيمون لذلك ، وإثبات الدعوة لهم قريبتها .

الثانية - قوله تعالى (مِنَ الْأَرْضِ) متعلق بـ (دعا) كقوله : دعوته من أسفل الوادى فطلع إلى ، لا بد (تخرجون) لأن ما بعد (إذا) لا يعمل فيما قبله .
الثالثة - قال الكرخي : قال هنا (إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) وقال في خلق الإنسان^(٢) (ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) لأنه هناك يكون خلق وتقدير وتدرج ، حتى يصير التراب قابلاً للحياة ، فنسخ فيه الروح ، فإذا هو بشر . وأما في الإعادة فلا يكون تدرج . بل يكون بدء وخروج . فلم يقل هنا : (ثم) . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)

[٢٧] (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ

الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(١) [٢٠ / طه / ١٠٨] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢٠] .

«وَلَهُ وَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أي خلقاً وملكاً وتصرفاً «كُلُّ لَّهُ وَ قَنِتُونَ» أي منقادون لتصرفه ، لا يتأبون عليه « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» أي من البدء. أي بالقياس إلى ما يقتضيه معقول المخاطبين. لأن من أعاد منهم صنعة شيء، كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها. وإلا فهما عليه سبحانه سواء في السهولة.

لطائف :

الأولى - تذكير الضمير ، مع رجوعه إلى الإعادة ، لما أنها مؤولة بـ (أن يعيد) .

الثانية - قال الزمخشري : فإن قلت : لم أخرت الصلة في قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وقدمت في قوله ^(١) (هُوَ عَلَى هَيْنٍ) ؟ قلت : هناك قصد الاختصاص ، وهو محزه . فقيل (هُوَ عَلَى هَيْنٍ) وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين همّ وعاقر . وأما ههنا ، فلامعنى للاختصاص كيف؟ والأمر مبني على ما يعقلون ، من أن الإعادة أسهل من الابتداء . فلو قدمت الصلة ، لتغير المعنى . اهـ .

قال الناصر : كلام نقيس يستحق أن يكتب بدوب التبر ، لا بالجر . وإنما يلقي الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر .

الثالثة - قال الزمخشري : فإن قلت ما بال الإعادة استعظمت في قوله ^(٢) (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ) حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض بأمره ، ثم هونت بعد ذلك ؟ قلت : الإعادة في نفسها عظيمة . لكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء . انتهى .

قال الناصر : إنما يلقي في السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بـ (ثم) إيذاناً بتغاير مرتبتها وعلو شأنها . وقوله (في الجواب) : إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء ، لا يخلص . فإن الإعادة ذكرت ههنا عقيب قيام السموات والأرض بأمره . وقيامهما ابتداء وإنشاء أعظم من الإعادة . فيلزم

(٣) [١٩ / مريم / ٩ و ٢١] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢٥] .

تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه من الإنشاء. ويعود الإشكال . والمخلص، والله أعلم، جعل (ثم) على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب . وإن سلم أنها لتراخي المراتب ، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا ، ومرتبة المعطوف هي الدنيا . وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب . فإن المعطوف حينئذ في أكثر المواضع ، أرفع درجة من المعطوف عليه ، والله أعلم . انتهى .

وفي حواشي القاضى : إن (ثم) إما لتراخي زمان المعطوف فتكون على حقيقتها . أو لعظم ما في المعطوف من إحياء الموتى، فتكون لتفاوت في الرتبة لا لتراخي الزمانى . والمراد عظمه في نفسه وبالنسبة إلى المعطوف عليه . فلا ينافى قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وكونه أعظم من قيام السماء والأرض ، لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء، وبه استقرار السعداء والأشقياء في الدرجات والدركات . وهو المقصود من خلق الأرض والسموات . فاندفع اعتراض الناصر بأنه ، على تسليمه ، مرتبة المعطوف عليه هنا هي العليا ، مع أن كون المعطوف في مثله أرفع درجة ، أكثرى لا كلى . كما صرح به الطيبي هنا . فلا امتناع فيما منعه . وهي فائدة تقيسه . ويجوز حمله على مطلق البعد الشامل للزمانى والرتبى كما في (شرح الكشاف) وقوله تعالى « وَكَأَنَّ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى الوصف الأعلى الذى ليس لغيره ما يدانيه فيهما . كالتفرد العامة والحكمة التامة . وذلك لأنه لما جعل ما ذكر أهون عليه على طريق التمثيل ، عقبه بهذا . فكأنه قيل هذا ، لتفهم العقول القاصرة أن صفاته عجيبة وقدرته عامة وحكمته تامة . فكل شئ بدء أو إعادة وإيجاداً وإعداماً ، عنده على حد سواء ، ولا مثل له ولا ند . وقال الزجاج: المراد بالمثل قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) فاللام فيه للعهد . فحمل المثل على ظاهره . وعلى ما ذكر أولاً ، هو مجاز عن الوصف العجيب . فيشمل القول وغيره مما هو جار على أسنة الدلائل ولسان كل قائل . اهـ (وَهُوَ الْعَزِيزُ) أى الغالب على أمره ، الذى لا يعجزه بدء ممكن وإعادته « الْحَكِيمُ » الذى يجرى أفعاله على سنن الحكمة والمصلحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ، هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[٢٩] (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ،
وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ)

« ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا » أى يتبين به بطلان الشرك « مِّنْ أَنفُسِكُمْ » أى منزعاً من أحوالها . وهى أقرب الأمور إليكم وأظهر كشفاً « هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » أى من العبيد والإماء « مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ » أى من الأموال وغيرها « فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ » أى متساوون فى التصرف فيما ذكر من غير مزية « تَخَافُونَهُمْ » أى تهابون أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم . وهو خبر آخر (أنتم) « كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ » أى كما يخاف بعضهم بعضاً من الأحرار المساهمين لكم فيما ذكر . والمعنى نرى مضمون ما فصل من الجملة الاستفهامية . أى : لاترضون بأن يشارككم فيما هو معارككم مما ليكم ، وهم أمثالكم فى البشرية ، غير مخلوقين لكم ، بل لله تعالى . فكيف تشركون به سبحانه فى العبودية ، التى هى من خصائصه الذاتية ، مخلوقه بل مصنوع مخلوقه ، حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه؟ أفاده أبو السعود « كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى مثل ذلك التفصيل الواضح ، توضح الآيات « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى يقين وبرهان « فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ » أى سبب صرف اختياره إلى كسبه . أى : لا يقدر على هدايته أحد « وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ » أى ينصرونهم من الله ، إذا أراد بهم عذاباً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ

لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[٣١] (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[٣٢] (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ » أى فقومه له ، واجعله مستقيماً متوجهاً له . وفى النظم الكريم استعارة تمثيلية ، بتشبيه الأمور بالتمسك بالدين ورعاية حقوقه وعدم مجاوزة حدوده والاهتمام بأموره ، بمن أمر بالنظر إلى أمر ، وعقد طرفه به ، وتسديد نظره وتوجيه وجهه له ، لمراعاته والاهتمام بحفظه «حَنِيفًا» أى مائلاً عن كل ماسواه ، إليه . قال المهايى : ولا يعسر الرجوع إليه لكونه « فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » أى لأن عقل كل واحد يدل على أنه حادث يفتقر إلى محدث . ولا دلالة على الافتقار إلى متعدد أبداً . فالقول بتعدده تغيير للفطرة . لكن « لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ » أى لا تغيير لأمر العقل الذى خلقه الله للاستدلال « ذَلِكَ » أى الدين المأمور بإقامة الوجه له ، أو الفطرة « الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى المستقيم الذى لا عوج فيه . قال المهايى : وإن لم يقم عند المبدلين دليل على استحالة التعدد ، فهذا هو مقتضى الفطرة « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أنه مقتضى الفطرة . وهى أقطع قاطع وأحسم حاسم لشغب المشاغب . لأنها من الأمور التى لا تدخل تحت الكسب والاختيار . وقوله تعالى « مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » أى راجعين إليه بالتوبة والإنابة^(١) (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) وهو حال من فاعل (الزموا) المقدر ناصباً للفطرة (أومن فاعل (أقم) على المعنى . إذ لم يرد به واحد بعينه . أولأن الخطاب له ﷺ ولأمته . أو على أنه على حذف المعطوف عليه . أى : أقم أنت وأمتك . والحال من الجميع

(١) [٣ / آل عمران / ١٣٥] .

« وَأَتَقَوْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ » أي جعلوه أدياناً مختلفة، لاختلاف أهوائهم «وكانوا شيعاً» أي فرقا «كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون» أي كل حزب منهم فرح بمذهبه ، مسرور ، بحسب باطله حقا .

قال القاشاني: يعنى المفارقين الدين الحقيقى ، المتفرقين شيعاً مختلفة ، كل حزب عند تكدر الفطرة ، وتكاثف الحجاب ، يفرح بما يقتضيه استعداده من الحجاب ، لكونه مقتضى طبيعة حجابيه . فيناسب حاله من الاستعداد العارضى ، وإن لم يلائم الحقيقة بحسب الاستعداد . ولهذا يجب به التعذيب عند زوال العارض . اهـ .

ثم احتج عليهم برجوعهم إليه عند الشدائد ، مما يحمل أن يرجع إليه بعبادته دائماً ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ

إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

[٣٤] (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

[٣٥] (أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ)

[٣٦] (وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ، وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ مِمَّا قَدَّمَتْ

أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)

« وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ » أي شدة « دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » أي راجعين إليه

وحده دون شركائهم « ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ » أي خلاصاً من تلك الشدة « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ » أي بالسبب الذى آتيناهم الرحمة من أجله ، وهو الإنابة . واللام للعاقبة . وقيل : للأمر التهيدى كقوله تعالى « فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ

تَمَلُّمُونَ « أى عاقبة تتمتعكم ووباله « أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا » أى حجة واضحة قاهرة « فَهَوَ يَتَكَلَّمُ » أى تسكلم دلالة . كما فى قوله (١) تعالى (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ) « بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ » أى بإشراكهم . وهذا استفهام إنكار . أى : لم يكن شىء من ذلك « وَإِذْ آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً » أى نعمةً من صحة وسعة « فَرِحُوا بِهَا » أى بطراً ونخراً ، لا حمداً وشكراً « وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ » أى شدة « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » أى من المعاصى والآثام « إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ » أى ييأسون من روح الله . قال : هذا إنكار على الإنسان من حيث هو ، إلا من عصمه الله تعالى ووفقه . فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال (٢) (ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ) أى يفرح فى نفسه ، يفخر على غيره . وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل بعد ذلك خير بالسكينة . قال الله تعالى (٣) (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أى : صبروا فى الضراء وعملوا الصالحات فى الرخاء . كما ثبت فى الصحيح (٤) : عجبا للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» قال الزمخشري : أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض . فإلهم

(١) [٤٥ / الجاثية / ٢٩] . (٢) [١١ / هود / ١٠] . (٣) [١١ / هود / ١١] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث رقم ٦٤ (طبعتنا)

يقنطون من رحمته ، وما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها ، حتى يعيد إليهم رحمته ؟

ولما بين تعالى أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم ، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل ، وما يجب أن يترك ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[٣٩] (وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ ،

وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)

« فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ و » أي من البر والصلة . واستدل به أبو حنيفة رحمه الله على

وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب . لأن (آتِ) أمر للوجوب .

والظاهر من (الحق) بقرينة ما قبله أنه مالي ، وهو استدلال متين « وَالْمِسْكِينَ » وهو الذي لا شيء

له ينفق عليه . أو له شيء لا يقوم بكفايته « وَابْنَ السَّبِيلِ » أي السائل فيه ، والذي انتقطع

به . وحقهما هو نصيبهما من الصدقة والمواساة « ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ »

أي النظر إليه يوم القيامة . وهو الغاية القصوى . أو يريدون ذاته بمعرفهم لارياء ولا سمعة ،

ولا مكافأة يد . كما قال تعالى ^(١) (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ وَيَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ وَمِن

نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى) « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أي في الدنيا

والآخرة « وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا » أي مال ترابون فيه « لِّيرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ » أي ليزيد

في أموالهم ، إذ تأخذون فيه أكثر منه « فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ » أي لا يزكو ولا ينفمو

(١) [٩٢ / الليل / ١٨ - ٢٠] .

ولا يبارك فيه . بل يحققه محق ما لا عاقبة له عنده إلا الوبال والنسكال . وذكر في تفسيرها معنى آخر ، وهو أن يهب الرجل للرجل ، أو يهديه ليموضه أكثر مما وهب أو أهدى . فليست تلك الزيادة بحرام . وتسميتها ربا مجاز ، لأنها سبب الزيادة .

قال ابن كثير : وهذا الصنيع مباح وإن كان لاثواب فيه . إلا أنه نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قال الضحاك ، واستدل بقوله تعالى ^(١) (وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ) أى لا تعط العطاء ، تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا ربا ، ان ، فرباً لا يصح ، يعنى ربا البيع ، وربا الأباة به ، وهو هدية الرجل ، يريد فضلها وإضعافها . انتهى .

وأقول : فى ذلك كله نظر من وجوه :

الأول - أن هذه الآية شبيهة بآية ^(٢) (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي بِى الصَّدَقَاتِ) وهى فى ربا البيع الذى كان فاشيا فى أهل مكة حتى صار ملكة راسخة فيهم ، امتصوا بها ثروة كثير من البؤساء ، مما خرج عن طور الرحمة والشفقة والكمال البشرى . فعنى عليهم حلهم ، طلباً لتزكيتهم بتوبتهم منه . ثم أكد ذلك فى مثل هذه الآية . مبالغة فى الزجر .

الثانى - أن الربا ، على ما ذكر ، مجاز . والأصل فى الإطلاق الحقيقة ، إلا لصارف يرشد إليه دليل الشرع ، أو العقل . ولا واحد منهما هنا ، إذ لا موجب له .

الثالث - دعوى أن الهبة المذكورة مباحة ، لا بأس بها بعد كونها هى المرادة من الآية - بعيدة غاية البعد . لأن فى أسلوبها من الترهيب والتحذير مما يجعلها فى مصاف المحرمات . ودلالة الأسلوب من أدلة التنزيل القوية ، كما تقرر فى موضعه .

الرابع - زعم أن النهى عنه هو الحضرة النبوية خاصة ، لا دليل عليه إلا ظاهر الخطاب . وليس قاطعاً .

لأن اختصاص الخطاب لا يوجب اختصاص الحكم على التحقيق . لا يقال الأصل وجوب

(١) [٧٤ / المذثر / ٦] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٦] .

حل اللفظ على حقيقته ، وحمله على المجاز لا يكون إلا بدليل ، وكذا ما يقال إن ثبوت الحكم في غير محل الخطاب يفترق إلى دليل - لأننا نقول: الأصل في التشريعات العموم ، إلا ما قام الدليل القاطع على التخصيص بالتنصيص ، وليس منه شيء هنا . وقد عهد في التنزيل تخصيص مراد به التعميم إجماعاً . كآية^(١) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) وأمثالها .

الخامس - أن في هذا المنهى عنه من إصعاد المرء إلى ذروة المحسنين الأعفاء ، الذين لا يتبعون قلوبهم نفقتهم ، ما يبين أنه شامل لسائرهم . لما فيه من تربية إرادتهم وتهذيب أخلاقهم . بل لو قيل إن الخطاب له صلوات الله عليه ، والمراد غيره ، كما قالوه في كثير من الآي - لم يبعد . لما تقرر من عصمته ونزاهته عن هذا الخلق ، في سيرته الزكية . وحينئذ فالوجه في الآية هو الأول ، وعليه المعول . والله أعلم . « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ » أي مال تتركون به من رجس الشح وذنس البخل « تَرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ » أي ذوو الأضعاف من الثواب . جمع (مضعف) اسم فاعل (من أضعف) إذا صار ذا ضعف ، (بكسر فسكون) بأن يضاعف له ثواب ما أعطاه . (كأقوى وأيسر) إذا صار ذا قوة ويسار . فهو لصيرورة الفاعل ذا أصله . أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة ما أنفقوا . على أنه من (أضعف) والهمزة للتعدي ، ومفعوله محذوف ، وهو ما ذكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، هَلْ مِنْ شَرِكَاكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ ، سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ)
 «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شَرِكَاكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ» قال القاضي : أثبت له

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١] .

تعالى لوازم الألوهية ، ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغيرها . مؤكداً بالإنكار على ما دل عليه البرهان والعيان ، ووقع عليه الوفاق . ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شركاء . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٤٢] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ، كَانُوا أَكْثَرُهم مُشْرِكِينَ)

[٤٣] (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ)

«ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» أى كثرة المضار والمعاصى على وجه الأرض وعلى ظهر السفن فى لجج البحر «بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ» أى من الآثام والموبقات ففسد الفساد وانتشرت عدواه وتوارثه جيل عن جيل أبنا حلوا وحيثما ساروا «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يُرْجِعُونَ» اللام للعاقبة . أى ظهور الشرور بسببهم ، مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم ، إرادة الرجوع . وقيل اللام للعلة ، على معنى أن ظهور الجذب والتحط والفرق بسبب شؤم معاصيهم ، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا ، قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة ، لعلهم يرجون عمام عليه . كقوله تعالى (١) (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ « أي فأذاقهم سبحانه سوء العاقبة، لشرّ كههم المستتبع لكل إثم وعصيان « فَأَقْرِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ وَ «أي لا يقدر أحد على رده. وقوله «مِنَ اللَّهِ» متعلق بـ(يأتي) أو بـ(مردّ) لأنه مصدر على معنى لا يرده تعالى، لتعلق إرادته بمجيئه . وفيه انتفاء رد غيره بطريق برهاني . وقيل عليه، لو كان كذلك لزم تنوينه لمسايقته للمضاف . وأجيب بأن الشبيه بالمضاف قد يحمل في ترك تنوينه . كما في الحديث (لامانع لما أعطيت) « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ » أي يتفرون كالفراس المبعوث ، أو فريق في الجنة وفريق في السعير كقوله^(١) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يُمְهِدُونَ)
 [٤٥] (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)
 « مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ » أي وبال كفره . قال الزمخشري : كلمة جامعة ، لما لا غاية وراءه من المضار . لأن من كان ضارّه كفره ، فقد أحاطت به كل مضرة « وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يُمְهِدُونَ » أي يسوون منزلا في الجنة . أي يوطئونه توطئة الفرائس لمن يريد الراحة عليه « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْأَنْفُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)
 [٤٧] (وَاقْدُرْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(١) [٣٠ / الروم / ١٤] .

«مَنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ» أى لا يسين . قال الزمخشريّ: من قبله، من باب التكرير والتوكيد، كقوله تعالى (١) «فَسَكَانَ عَظِبَتَهُمَا أَتَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا» ومعنى التوكيد فيه، الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تجاوز وبعد، فاستحكم بأسهم وتمادى إبلاسه . فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك . انتهى .

وعكسه ابن عطية رحمه الله فقال : إنه يدل على سرعة تقليب القلوب البشرية من الإبلاس إلى الاستبشار .

قال الشهاب : وما ذكره ابن عطية أقرب . لأن المتبادر من القبلية الاتصال . وتأكيده دال على شدة اتصاله «فَأَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ» أى أثر الغيث من النبات والأشجار والحبوب والثمار «كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ» أى العظيم الشأن الذى ذكر بعض شؤونه «لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ)

[٥٢] (فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)

[٥٣] (وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)

«وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا» على الزرع «فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا» أى من تأثيره فيه «لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ» أى من بعد اصفراره يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ، أو يقنطون ولا يصبرون على بلائه . وفيه من ذمهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكيرهم وسوء رأيهم - ما لا يخفى .

ثم أشار تعالى إلى أن من أنكر قدرته على إحياء الزرع بعد اصفراره ، وقد رأى قدرته على إحياء الأرض بعد موتها ، فهو ميت لا يمكن إسماعه خبر إحياء الموتى ، بقوله سبحانه « فَأِنَّكَ لَآتُسْمِعُ الْمَوْتَى » أى لما أن هؤلاء مثلهم ، لانسداد مشاعرهم عن الحق «وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» قال أبو السعود: تقييد الحكم بما ذكر، لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون لخصالتي السوء ، نبواً أسمعهم عن الحق ، وإعراضهم عن الإصغاء إليه. ولو كان فيهم إحداهما ، لكفاهم ذلك. فكيف وقد جمعواهما؟ «وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ» أى ما تسمع «إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ» أى منقادون لما تأمرهم به من الحق .

تنبيه :

قال ابن كثير : وقد استدلّت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بهذه الآية ^(١) (فَأِنَّكَ لَآتُسْمِعُ الْمَوْتَى) على توهم ^(٢) عبد الله بن عمر في رواية مخاطبة النبي ﷺ القتل الذين ألقوا في قلب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاينته إياهم وتقريعه لهم . حتى قال له عمر : يا رسول الله ! ما تخاطب من قوم قد جيفوا؟ فقال : والذي نفسى بيده ! ما أنتم بأسمع لما أقول ، منهم . ولكن لا يجيبون . وتأولته عائشة على أنه قال : إنهم الآن يعلمون أن ما كنت أقول لهم حق . وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقاتله ، تقرّبا وتوبيخاً ونقمة .

ثم قال ابن كثير: والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة . من أشهر ذلك ، ما رواه ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً (ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم ، كان يعرفه في الدنيا ، فيسلمّ عليه إلا ردّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام) . انتهى .

وقال ابن الهمام : أ كثر مشايخنا على أن الميت لا يسمع استدلالاً بهذه الآية ونحوها .

(١) [٣٠ / الروم / ٥٢] . (٢) الحديثان أخرجهما البخاريّ في : ٢٣ - كتاب

الجنائز ، ٨٧ - باب ما جاء في عذاب القبر ، حديث ٧٢٦ و٧٢٧

ولذا لم يقولوا : بتلقين القبر . وقالوا : لو حلف لا يكلم فلانا ، فكلمه ميتاً لا يحث . وأورد عليهم قوله ﷺ في أهل القليب (ما أنتم بأسمع منهم) وأجيب تارة بأنه روى عن عائشة رضی الله عنها أنها أنكرته . وأخرى بأنه من خصوصياته ﷺ معجزة له . أو أنه تمثيل . كما روى عن علي كرم الله وجهه . وأورد عليه ما في مسلم^(١) من أن الميت يسمع قرع نعالمهم إذا انصرفوا . إلا أن يخص بأول الوضع في القبر ، مقدمة للسؤال ، جمعاً بينه وبين ما في القرآن . نقله الشهاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ

مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)

[٥٥] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ، كَذَلِكَ

كَانُوا يُؤْفَكُونَ)

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ » قرئ بفتح الضاد وضمها . أى من أصل ضعيف هو

النفطة « ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ » يعنى حال الطفولة والنشء « قُوَّةً » يعنى حال البلوغ

والشبيبة إلى الاكتمال وبلوغ الأشد « ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً » أى بالشيخوخة

والهرم « يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » أى من الأشياء . ومنها هذه الأطوار التى يتقلب بها الإنسان

« وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ » أى الواسع العلم والقدرة . كيف؟ وهذا الترديد فى الأحوال المختلفة

والتغيير من صفة إلى صفة ، أظهر دليل على علم الصانع سبحانه وقدرته ، المستتبع انفراد

بالألوهية « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » أى فى الدنيا

أو القبور . وإنما يقدر وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له . أو ينسون أو يكذبون

أو يضمنون « كَذَلِكَ كَانَ أُولَئِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ » أى مثل ذلك الذى صرفوا كانوا يصرفون عن الصدق

والتحقيق فى الدنيا . وهكذا كانوا يبتون أمرهم على خلاف الحق . كذا فى الكشاف .

(١) أخرجه فى : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٧١ (طبعتنا).

وقال ابن كثير : يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة . ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان . وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً . فنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا . ومقصودهم بذلك عدم قيام الحججة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . انتهى .

وقال الشهاب : المراد من قوله ^(١) (كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ) تشابه حالهم في الكذب وعدم الرجوع إلى مقتضى العلم . لأن مدار أمرهم على الجهل والباطل . والغرض من سوق الآية وصف المجرمين بالتمادى في الباطل ، والكذب الذى ألفوه . انتهى .
وقيل : كان قسمهم استقلالاً لأجل الدنيا ، لما عابوا الآخرة ، تأسفاً على ما أضعوا في الدنيا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ

الْبَعْثِ ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[٥٧] (فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ » ردّاً لما حلفوا عليه ، وإطلاعا لهم على الحقيقة « لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ » أى فيما كتبه الله وأوجبه بحكمته « إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى أنه حق ، لتفريطكم في طلب الحق واتباعه « فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى بالشرك ، أو إنكار الربوبية ، أو الرسالة ، أو شيء مما يجب الإيمان به « مَعذِرَتُهُمْ » أى بأنهم كفروا عن جهل . لأنه إنما كان عن تقصيرهم في إزالته ، أو عن عناد « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » أى ولا يطلب منهم الإعتاب . أى إزالة

(١) [٣٠ / الروم / ٥٥] .

العتب بالتوبة والطاعة . لأنهما ، وإن كانتا ماحيتين للكفر والمعاصي ، فإنما كان لهما ذلك في مدة الحياة الدنيا ، لا غير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ)

[٥٩] (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[٦٠] (فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخْفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ)

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ » أى من كل وصف يوضح الحق ويزيل اللبس . أو من كل دليل على الأمور الأخروية . والحق يجرى مجرى المثل في الظهور « وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ » أى مما اقتضوه أو غيرها « لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ » أى لا يؤمنون بها . ويعتقدون أنها سحر وباطل « كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق . بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها . فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ، ويوجب تكذيب الحق . قاله أبو السعود « فَأَصْبِرْ » أى على ما تشاهد منهم ، من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة « إِنْ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى في قوله ^(١) (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) « وَلَا يَسْتَخْفَنَّكَ » أى لا يمحلك على الخفة والقلق « الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » أى بما تلو عليهم من الآيات البينة ، بتكذيبهم إياها ومكرهم فيها . فإنه تعالى منجز لك ما وعدك من نصرك عليهم ، وجعله العاقبة لك ، ولن اعتصم بما جئت به من المؤمنين .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٧١ - ١٧٣] .